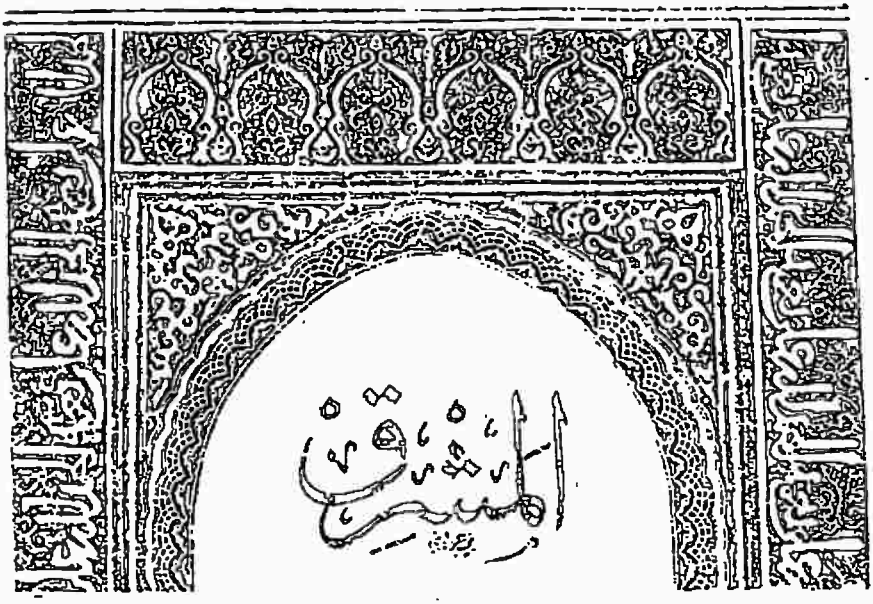

السنة الثلاثون — تشرين الثاني ١٩٣٢

الرهبانيَّة اللبنانيَّة المارونيَّة

صفحة تاريخيَّة

بقلم الاب انطونيوس شبلي اللبناني

١

توطئة

صار وثماني وثلاثون سنة مرَّت على تأسيس الرهبانية اللبنانية المارونية في الديار الشرقية كما يمرُّ الظلّ وغاصت في بحار الابدية كما غاصت فيها السنون الغابرة ، حاملةً في طيّ ردائها الحوادث والعِبَر بما فيها من شقاء وهناء .

عبرت تلك السنوات كما يعبُر الطير في فلك الهواء غير تارك لمروره أثرًا . انها « مضت كالظلّ وكالخبر السائر او كالسفينة الجارية على الماء المتموّج التي بعد مرورها لا تجدُ أثرَها ولا خطَّ حيزومها في الامواج . او كطائر يطير

في الجوّ بقوادمه ويشقّ الهواء بشدّة سرعته وبرفرفة جناحيه ، يمرّ ثمّ لا تجد لمروره من علامة . او كسهم يُرمى الى الهدف فيُخرّق به الهواء ولوقته يعود الى حاله حتى لا يُعرف مَمَرُ السهم » (حكمة ٥ : ٩ — ١١)

كذا تزول الايامُ والليالي وينقضي عمرُ المرء بانقضائها ولا يبقى ثابتاً غير الله . قال داود النبيّ : « أيامي كظلّ مائل ، وقد يبستُ كالعُشب . وانت ، يا ربُّ ، ثابتٌ الى الأبد . . . في البدء أسّست الارض ، والسماوات هي صُنعُ يديك ، هي تزول وانت تبقى وكلّها تَبلى كالثوب وتطويها كالرداء فتتغيّر وانت انت وسنوك لن تفنى . » (مز ١٠١ : ١٢ — ١٣ و٢٦ — ٢٨)

قطعت الرهبانية المارونيـة مرحلة قرنين ونيّف وهي لا تزال الى الأمام ، فأجدر بها ان تُلقي نظرةً عجلى على هاتيك السنوات التي طوتها والمسافات التي عبرتها والحوادث والشؤون الجلّى التي مرّت بها فداستها واجتازتها ثابتة اليقين ، بارزةً من معامعها طلقةَ المحيّا وضّاحة الجبين .

قد يقفُ المسافر الذي جاز قسماً وافراً من الطريق تجديداً لقواه وانعاشاً لهمّته ونشاطه ، اما الرهبانيّة اللبنانيّة فلا تقف بعد مسيرها مسافة قرنين لتستروح نسيم الراحة عقب جهادٍ مستمرّ ، بل تنشط في أمرها تشكرُ الله الذي شدّد ضعفها وسنَدها بذراعه القديرة طيلة هذه السنين ، ناشرةً أمجاد منشئها وفضائل ابنائها وما عانوا من إرهاق وبذلوا من أعراق في سبيل إنمائها وتعزيزها وترقيها في مدارج الدين والدنيا من مهدها الى يومنا هـذا ، ناثرةً على رفاتهم أطيب التحيّات ، ضارعةً الى ابي المراحم ان يُجزل ثوابهم بسعادته الخالدة ويغمرها بشفاعتهم بأغزر الخيور وأسنى البركات .

اطلّ عام ١٩٣٢ الحالي الذي فيه تمّ مرور قرنين كاملين على اثبات قانونها الرهبانيّ ، فنشط قدس رئيسها العام المقدام الآبائي العـلّامة المفضال مرتينوس طَربيه الى إحياء تذكار جميل لهذا الحَدَث الخطير الاول من نوعه في الشرق ، فأنفذ رسالة عامة الى جميع ابنـاء الرهبانية — وكان قدسه السابق الى ابراز هذه الفكرة الى حيّز العمل — اتى فيها على لمعة في تأسيسها ، وكيفية تثبيت قانونها ، وما قاسته من الاتعـاب في هذا السبيل ، مذكراً الرهبان بفضائل

جدودهم لينسجوا على منوالهم ويأتمّوا بامثال سيرتهم الصالحة ، ومنبّهاً خاطرهم الى وجوب استقبال هذا العيد المئوي الثاني الواقع في ٣١ اذار من هذه السنة بأبهى مظاهر التكريم وابلغ عواطف التقوى والفرح الروحي . وقد حثّهم على ان يضاعفوا الصلوات والعبادات لاجل مؤسسي الرهبانية والمحسنين اليها احياء واموواتاً ، وان يقيموا الزمن الباهرة في اديارها ومعابدها إحتفاء بهذا التذكار اللذيذ . وعندما مثلَ الابُ العام امام قداسة الحبر الاعظم ، البابا بيوس الحادي عشر المالك سعيداً ، التمس منه غفراناً كاملاً لكل من يشترك بهذا الاحتفاء من رهبان وعاميّين ، فتنازل قداسته الى اجابة سؤله برقيم كريم يأتي ذكره .

ورأينا بهذه المناسبة ان نكتب كلمةً موجزة في نشأة الرهبانية وعلاقاتها بالطائفة المارونية ، وما أدّت لها وللدين وللوطن من الخدَم والمآثر التي لا تبلى جدّتُها ولا ينقضي على مرّ الايام ذكرُها ، ننشرها على صفحات مجلّة « المشرق » الزاهرة ، ذكرى لعيد اثبات قانونها المئوي الثاني .

١٠

نشأة الرهبانية اللبنانية

الشرق جنّةٌ زاهية زاهرة نبتت في تربتها الخصبة الغراس الروحيّة النضرة تحمل ثمار الفضائل الطيّبة . فقد نشأ فيها هابيل ونوح وابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف أحبّاء الرب والانبياء والصدّيقون والكهنة ، الى ان جاء السيّدُ المسيح فزاد عظمة الشرق مجداً وفخاراً واكتمل به بدرهُ وسطعت في أرجائه انوارُ شمسه اذ وُلد وسكن فيه شعاع الآب وضياء مجده .

في جنّة الشرق ازهرت طغمة الرسل ، واينعت نصوبُ الشهداء والملافنة ومفسّري الكتب وصانعي العجائب ، وفيها قام المتبتلون والمتنسكون كرهبان القديس مارون يعلّمون ويرشدون الشعب بمثالهم وقولهم مرتفعين كأرز لبنان بسموّ فضائلهم وتعليمهم لا يأخذهم عياء ولا مَلَل في الجهاد والدفاع عن المجامع المقدّسة ، باذلين دماءهم حفاظاً على تعليم الكنيسة الرومانية وحثّا

للشعب المجاور لهم المتمسك بتعليمهم على الاتحاد الوثيق المرى بنائب السيد المسيح على الارض . وقد انتشر ابناؤنا الابرار في الاديار اللبنانية كدير القديس مارون في كفرحي ودير سيدة يانوح وسيدة ميفوق وحابيل ودير القديس سمعان والياس واليشع والسيدة في قرية لحفد ودير كفيفان ومار برجس الكفر ودير قنوبين وقزحيا واليشع في الوادي المقدس وغيرها من الديورة في انحاء لبنان[1] .

غير انّ كلّ دير من هذه الاديار كان مستقلًا عن غيره برئيسه وعاداته وقوانينه . ولم يكن لرهبان هذه الديورة المارونية من رابطة تجمعهم تحت سلطة وادارة رئيس واحد يدير شؤونهم . فاحبّ الله ان يضمّ شتاتها ويمسكها بقانون واحد وتدبير رئيس عام واحد ويعيش رهبانها عيشة مشتركة ، فدعا بالهامه الهيّ ثلاثة شبّان من عباب الشهباء من اهل الصلاح والتقى ومن ذوي الجاه واليسار فيهما وهم جبرائيل حوّا ، وعبد الله قراعلي ، ويوسف البتن ، ليؤسّسوا رهبانية قانونية في جبل لبنان .

غادر هؤلاء الثلاثة وطنهم تلبيةً للدعوة الالهية . فالاول جاء في غرّة تشرين الاول ١٦٩٣ قاصدًا لبنان توًّا ، والآخران في ١٦٩٤ وقد عرّجا على فلسطين لزيارة الاماكن المقدسة ، ثمّ حضرا الى لبنان موطن العبادة والزهادة . واجتمعا برفيقهما الثالث جبرائيل حوّا ، ومثلوا بحضرة رأس المارونية الاكبر الحبر القدّيس البطريرك اسطفان الدويهيّ ، في بدء صيف ١٦٩٤ ، وكشفوا له عن عزمهم على انشاء رهبانية مرتبطة بقانون ورئيس عام واحد تخضع لسلطانه جميع رهبان الديورة ، وان يكونوا مقيدين بنذر الطاعة والعفة والفقر والتواضع ومنتسبين الى القديس انطونيوس ابي النسّاك . فاراد السيد المبجل امتحان عزمهم ليرى هل بوسعهم احتمال شظف الحياة الرهبانية في هذه الديار الشرقية ، فاوضح لهم صعوبة عيشة النسّاك على مَن كان مثلهم من أرلي الرخاء والرفاهية مع ما يلحقها من كدّ البدن بحراثة الارض تحصيلًا للمعاش ، فضلًا عن الحروب

١) مقدّمة السمعاني على كتاب القانون

الناشبة في البلاد وتضعضع حبل الامن والراحة فيها ، مما يجعل التوطن في هذه الجبال على حالٍ من الطمأنينة متعذرًا . فأعلنوا له ثباتهم في قصدهم واكلين أمرهم الى الله والى غبطته . وما زالوا يُلحفون في الطلب والتوسّل حتى فازوا بامنيتهم فامرهم البطريرك ان يقيموا في دير القديسة مورا الخَرب في اهدن قصدَ ان يرموه لما يُرجى بعمارهِ من النفع الروحيّ والزمنيّ لاهل هذه البلدة . فانفق حرًا والبتّ على تجديدهِ وتأثيثه ستة آلاف وثمانئة وثلاثين غرشًا[1] . وألبسهم الدويهي في اليوم العاشر من تشرين الثاني ١٦٩٥ الزيّ الرهباني في دير قنُوبين على سبيل الامتحان ، بدون ان ينذروا النذور الرهبانية . ورجعوا الى دير القديسة مورا عاقدين النيَّة على تأليف قانون يقتطفونه من تعاليم القديس انطونيوس الكبير وتلاميذه وغيرهم من الزهّاد .

ولحق بهم في اواخر تلك السنة جبرائيل فرحات . وكان من عصبتهم ، بل زعيمهم . واقاموا الاب حرًا رئيساً عليهم ، بعد ان سامه الدويهي قسًا بحضور والديه سنة ١٦٩٥ . وشرعوا منذ ذاك بتأسيس الرهبانية وجَمْع قوانينها وذاع خبر فضائلهم وضاع عرفُ قداستهم فاقبل عليهم كثير من طلّاب الرهبانية ، فازداد عددهم في مدّة وجيزة ، وعُرفوا بغزارة الفضل وبالحزم والنشاط وجودة التدبير والمبالغة بالزهد .

وتسلّموا سنة ١٦٩٦ دير القديس اليشع النبي ، في سفح الوادي المقدّس ، فانتقل اليه في فصل الشتاء قسمٌ من الرهبان هرباً من شدّة البرد في اهدن ، وأناطوا تدبيرهم بالشمّاس يوسف البتّ ، في غياب الرئيس الاب حرًا . ونزل الاب قراعلي الى زغرتا لتعليم احداثها مبادئ الديانة والقراءة .

وصعد في ربيع ١٦٩٧ الاب قراعلي والرهبان الى دير القديسة مورا ، وانتهوا هناك من وضع اثنين وعشرين باباً من القانون ، ولاسبابٍ اختصروها الى خمسة عشر باباً ، وفرضوا بعض فرائض يطلبها النظام الرهباني . وقرّروا

---

١) مذكّرات الاب قراعلي ، المجلد الاول من تاريخ الرهبانية ، والاب البرذي . (المشرق ١٩ [١٩٠٧] : ٦٢٦)

ان يُقام على الرهبانية رئيس عامٌ واحد يتعلق به تدبيرها ، مع اربعة مدبّرين يؤازرونه في مهامه ، وان يُعيّن لكلّ دير رئيس خاص يُعنى بادارته خاضع لسلطة الرئيس العام . وان تستمرّ هذه الرئاسات ثلاث سنين في نهايتها يُعقد مجمع عام في العاشر من تشرين الثاني ، ذكرًا لهذا اليوم الذي توشّح فيه المؤسسون بالزيّ الرهباني ، الى آخر ما وضعوا من الفرائض والانظمة .

وعُقد المجمع العام في العاشر من تشرين الثاني ١٦٩٨ في دير القديس اليشع ، فانتُخب الاب حوّا رئيساً عامًا ، والاب قراعلي مدبّرًا ورئيساً على الدير المذكور ، والاب فرحات مدبّرًا ورئيساً على دير القديسة مورا . وكان هذا المجمع العام الاول في الرهبانية . واذ كان الرئيس العام الاب حوّا راغباً في جعل غاية الرهبانية الرسالة عارضه في رأيه الاب قراعلي واكثر الرهبان ، موجبين التمسك بالفرائض التي سُنّت لها والركن الذي تأسست عليه وهو الانقطاع عن العالم والتحصّن بالديورة . وكانت بينهم على ذلك منازعات هادئة لم يتعدّ صداها جدران الاديار ولا محل هنا لذكرها ، حتى تحقّقت اخيرًا امنية الاب عبد الله وسار برهبانيته على نظام التوحّد والانفراد ، إلّا اذا دعت الحاجة الى الرسالة ، صاعدًا بها في مراقي الكمال الرهباني كما يأتي الكلام .

ولما لم يتسوّ هذا الخلاف بين الابوين حوّا وقراعلي ، حكم البطريرك بفصل الواحد عن الآخر بصكّ ابرزه سنة ١٧٠٠ ، واعطى الاب حوّا دير القديسة مورا ، والاب قراعلي دير القديس اليشع ، وامر ان يُقسم الرزق بينهما مناصفةً . واطلق الحرّية للرهبان في اتباع من ارادوا من الاثنين ، وان يأخذ كلُّ راهب حاجته من المؤنة والكساء . فتبع الاب حوّا واحد فقط من الرهبان وبعض المبتدئين . والتفّ حول قراعلي كلُّ الباقين .

ولدى وقوع هذا الخصام استولى الضجر على الاب فرحات ، وكان من فكر الاب حوّا إقصاءهُ الى احد الاديار ، في غياب قراعلي الى حلب لبعض الشؤون ، ليتسنى له اطلاق يده في تدبير الرهبان على هواه . فانسحب الاب فرحات سنة ١٧٠٠ راغباً في الانضمام الى احدى رهبانيات المرسلين . وتوطّن دير القديس يوسف في زغرتا يدرّس احداثها ، ويعظ على منبر كنيستها ايام الآحاد والاعياد ،

ويعيش من صدقات المؤمنين . وما درى الرهبان بخبره حتى اضطربت افكارهم وازداد بغضهم للاب حوّا ، لانهم عزوا اليه سبب انفصاله ، وقد عزّ عليهم فراقه لما له من المنزلة الرفيعة في عيونهم وعيون الاكابر والاصاغر ، وهو احد الرؤساء العالم الطائرة شهرة فصاحته وبراعته في اللغة العربية والدعامة القوية لركن الرهبانية في التقوى والعلم . ولما كانت آراء الاب حوّا لا تنطبق على ارائهم كما اشرنا اولًا ، وهالهم ثانياً بعد الاب فرحات عنهم ، تداولوا واوجبوا سنة ١٧٠٠ ، على غير علم الابوين حوا وقراعلي ، عقد المجمع العام قبل اوانه ورموا القرعة الاولى فاسفرت عن لزوم التمسك بقانونهم . ثمّ الثانية فانجلت عن عزل الاب حوّا من الرئاسة العامة واسنادها الى الاب قراعلي . فاستتبّ السلام بين الرهبان ، ونهض الاب العام الجديد الى سياسة الرهبانية بروح الغيرة والتجرّد والاخلاص .

وما فتر الاب قراعلي والرهبان عن مراسلة الاب فرحات والذهاب اليه داعينه الى العود اليهم بارق عبارات الحبّ والتودّد ، وعن الصلاة لنوال هذه البغية ، حتى ادركوا ما تمنّوا . فاستقبلوه بأبهى مجالي الحفاوة . وشدّ ما كان فرحه وفرحهم بهذا الاجتماع اللذيذ بعد فراق خمس سنين برّحت بهم لوعته وتعاظمت في قلوبهم مرارته . وقد افضى اليهم الاب فرحات بخيبة نفسه واطلاعهم على تبلبل باله واضطراب ضميره مدّة افتراقه عنهم[1] .

١) رجع الى اخوانه سنة ١٧٠٥ وفيها نذر النذور الرهبانية .

(للبحث صلة)